الجزء الخامس من المجلد الثاني

جمادى الاولى سنة ١٣٢٥ الموافق يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٧

غلو الشرقيين

عرف علماء البيان المبالغة بأنها وصف شيء بما يزيد على ما في الواقع واختلفوا في جوازها واباحتها فجعلوا منها المقبول ومنها المردود وهو الرأي الراجح وقسموا المبالغة الى اقسام ثلاثة الاول التبليغ وهو وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه في العادة والثاني الاغراق وهو وصف الشيء بالممكن في العقل دون العادة والثالث الغلو وهو الوصف الذي لا يمكن في عقل ولا عادة .

ولقد راجت سوق الغلو ولا تزال رائجة في الشرق بما سرى اليه من ضعف العقول بضعف العلوم التي تنفع في التمييز بين ما يقع وما يمتنع . والغلو موجود عند كل امة ولكنك تراه على اشده عند المشارقة فان المفهوم من تاريخ المغاربة وآدابهم بأنهم دوننا في المبالغات والسبب في ذلك والله اعلم ان فلسفة ابناء الغرب فلسفة حسية مبنية على الحس وفلسفتنا فلسفة خيالية .

الشرقي يبالغ ويفحش في الغلو بالدقيق والجليل من شؤونه الدنيوية والاخروية فقد بالغ في تصوير الامور الروحية حتى صار كثير من أممه يؤلهون المخلوقات ويسجدون للجمادات والنجماوات او يثبتون لما يحترمون من الآدميين من ضروب الصفات ما تضل في تكييفه العقول ويعتريها الذهول .

جاءت الاديان السماوية لنزع هذا الغلو من العقول فسلمت بتعاليمها العقول في بعض اصقاع الشرق حيناً من الدهر حتى عادت بالتدريج الى سابق اغراقها وافراطها في وصف

البشر ونأليههم الى حد المزال فدل ذلك على عموم الجهل وضعف العقل . الشرقي يبالغ في تصوير الصفات فاذا وصف احداً بالعفة اختلق لهُ من النعوت ما تمليه المخيلة وتساعد عليهُ محفوظاته من الفاظ اللغة واقل ما يصف به من يريد وصفه ان يثبت له من الصفات ما لا يليق بعضه الاّ باكبر دعاة الحكمة من افراد العالم .

الشرقي يبالغ اذا وصف احداً بالسخاء والشجاعة والمروءة والشيم وكل ما يرفع النفوس الى المقامات السامية . وفي دواوين الشعر وكتب المحاضرات امثلة اكثر من ان تحصى او يستشهد بها فاقرأها يتجلى لك كيف تضيق الاحلام بالاوهام وأنى تسطو الخرافات على المخلوقات .

نعوذ بالله من شعرائنا الجاهليين والمخضرمين والمولدين اذا انشأوا ينشئون القصائد ويشدون بالمناقب والمحامد . تأملها مليّاً وضعها على محك النقد الصحيح وانصف في تطبيق مفاصلها على الحقيقة وانظر اذا كنت لا توجب عليهم الكفارات لفرط ما غلوا في المبالغات واذا غاليت ايضاً فاحكم عليهم بالجلد مئين واسجنهم لئلا يعلموا الناس هذا الخلق المشين ويحملوا اليهم ذاك الرأي الافين والداء الدوي الدفين . وقل معي ان امة تقول « اعذب الشعر اكذبه واشعر الناس من استجيد كذبه » هي هي امة المبالغة والغلو .

ومع ان الحساب من اختراع الشرقيين وكان لهُ فيما مضى بين ظهرانيهم شأن عظيم ترى خاصتنا دع عنك عامتنا في القديم والحديث اذا عدوا وقاسوا نسوا الحساب والمساحة واذا قدروا اوغلوا في عالم الخيال وخرجوا عن طور الحس وتناسوا التدقيق فكالوك او وزنوك بالالوف وربما كانت الحقيقة في العشرات .

ترى قومنا هداهم الله اذا سألت اكثر الطبقة العالية منهم كم قوّة الدولة الفلانية اجابوك لساعتهم كذا وكذا بتحديد الارقام مع انك لو سألت كبار رجال تلك الدولة لتمهلوا في الجواب واضطروا ان يرجعوا الى حساب وربما بقيت في نفوسهم بعد ذلك من صحة ما قالوا اشياء كما مات الفراء وفي نفسه شيء من حتى .

ترى كثيرين من خاصتنا اذا سألتهم عن الثروة لا يسعك الا ان تقف شاخصاً تستعيذ بالله من غلوّ المشارقة وتجويزهم الكذب وايغالهم في الباطل وضعف استقرائهم واستنتاجهم وغفلتهم عن القياس . قف واسأل الله السلامة وهم يصورون لك صاحب المئة من اصحاب الالوف وصاحب الالف من اصحاب مئات الالوف وهكذا الى ما شاء الله وشاء اتساع عقولهم .

ولقد كان بعض الظرفاء يقول: اذا ذكرت اموال صاحب الثروة في الشرق وقدر

ما تملك يمينه فاحذف صفرين من يمين الارقام فاذا قالوا لك ان فلاناً يملك عشرة آلاف فاعرف انه يملك مئة واذا قيل لك مئة الف فاعرف انه يملك عشرة آلاف وهكذا افرض اقل تعديل لعلك تستطيع على الحقيقة وكان يقول اذا لم تصدق فاسأل العادين ممن يقدرون ثروات الافراد الى آخر درهم مما عندهم على حين انك لو سألت اصحابها عما يملكون لما عرفوا ان يقدروا لك الاّ بالتخمين والتقريب هذا اذا لم يكونوا من اهل الغلو والاغراق

اجارك الله من شرقي يتشدق بذكر عالم عرفهُ او سمع به او جد نسب اليه ولا سيما اذا كان ذاك العالم في عالم الاموات والشرقي يرى المبالغات بالاموات من اقرب القربات ولعلهُ يحيل على بعيد عن قصد لان الحكم على الاحياء القريبة يستلزم منهُ ان يأخذ المتكلم من عنان لسانه و بيانه

ساعدت الجرائد والمطابع والمدارس على تخفيف الشرقيين من المبالغات ولكنها لم تتمكن الى اليوم من نزع هذا الخلق المتأصل في السواد الاعظم و بعض الناس في الغالب مسوقون الى المبالغة بحكم العادة والبيئة . ولقد وقعت من ذلك حادثتان كانتا من اكبر الادلة على ان هذا الخلق فينا لا ينزع الاّ اذا اكثر الكتاب من التنديد فيه وعملنا كلنا على قلب اوضاع مجتمعنا وعاداته .

فالحادثة الاولى جرت في مصر إبان مسألة العتبة في السنة الماضية فقال احدى الجرائد المتحمسة ان الدولة حشدت في عريش مصر ثمانمائة الف جندي كتبت ذلك برقم غليظ ولما سئلت من الغد في معنى هذه المبالغة قالت ان المحشود من الجنود هو ثمانون الفاً وان الصفر زائد وبعد التحقيق تبين ان ما كان جمع هناك من الجند لم يتجاوز الالفين فتأمل مبالغة نقولها جريدة كبرى في مدينة كالقاهرة في مثل هذا العصر عصر الاحصاء والتقدير في قطر اتصل جنوبهُ بشماله وشرقهُ بغربه بالخطوط الحديدية والاسلاك البرقية والتلفونية بحيث لا يحتاج تحقيق هذا الغلو الا لشيء من البحث

والحادثة الثانية جرت لصاحب هذه المجلة اذكرها للقارىء على سبيل التمثيل والفكاهة فاني ما ذكرتها الا وذكرت معها غلوّ الشرقي . ذلك اني كنت منذ تسع سنين اكتب جريدة الشام فنعى الناعي ذات يوم رجلاً من وجهاء الاكراد في صالحية دمشق كان معروفاً بين اهل جيله وحيه بانهُ من المعمرين الممتعين فقال لي الناعي وكان من اكابر الفضلاء: اكتب انهُ مات عن خمس وثلاثين سنة بعد المئة . فقلت لهُ : ان العدد عظيم فهل لك ان تنزله فنهرني وقال : اكتب والحق اقول ان المرحوم كان اطول عمراً مما قلت لكَ يعرف ذلك الناس حتى ان فلاناً قال لي ذلك واكده افلا يسعك ما يسع العارفين به وعندها

كتبت : ومات عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين بعد المئة . ولم يكتف الناعي بذلك بل قال ان المتوفى خلف خمسمائه نفس ذكوراً واناثاً فكتبت بعد تأبينه والغلو في ذكر عاداته وصحته طول حياته : ومما يجدر بالذكر ان لهُ من الولد وولد الولد ما يزيد عن ثلاثمائة نفس ذكوراً واناثاً .

كتبت هذا وانا بين الشك واليقين في صحته لكني كنت والحق يقال الى اليقين اقرب لان الناقل ممن اعتقد فيهم سعة العقل وصحة القياس . فاعجب الناس بما كتب وتحدثوا به وربما زاد بعضهم نقال : ان عمر المرحوم كان اكثر مما ذكر وان الجريدة اخطأت في تقدير عمره ولعل سنه لا تقل عن مئة وخمسين واولاده واحفاده اكثر من ذلك بمئين .

ولما انتشرت الصحيفة في البلاد تناقلت الخبر عنها بعض المجلات العلمية واكثر الجرائد السيارة في البلاد العثمانية وربما لم تغفل زميلاتها في مصر ايضاً عن نقل هذا النبإ الغريب فدهشت من هول ما رأيت ونبهني احد العقلاء الى هذا التسرع في الحكم على عمر الميت واولاده فلم يسعني الا ان اخذت في تحقيق الخبر فتبين ان الرجل لم يتجاوز المئة وان ابناءه وابناء ابنائه هم دون الخمسين بيقين . وان ظل بعض احباب المبالغة يقولون ان الرجل مسن جداً وقد حارب في جيش ابراهيم باشا المصري ولكن لم يسعهم ان يكثروا في عداد اولاده لان الاغراق في عددهم يكذبه العيان واما عمر والدهم فليس فيه مستند تاريخي صحيح يعول عليه ما دام الشرقي يأخذ تاريخ رجاله واكثر ساسته في الاكثر من افواه الشيوخ والعجائز . وبعد مدة ظهر لي ان المتوفى المشار اليه كان جاء الى ادارة تلك الجريدة بنفسه قبل وفاته بسنتين وكتبت تعجب منهُ ومن صحته ونشاطه وقالت ان عمره مئة وخمس وعشرون سنة . فكان ما جرى من المبالغة في تقدير عمر الرجل وعدد اولاده واحفاده اشبه بما تأتيه الجرائد الصفراء في اميركا من الغلو في تجسيم الاخبار لالفات الانظار .

واحسن تعليل للمبالغة ما ذكره ابن خلدون بقوله : وقد نجد الكافة من اهل العصر اذا افاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم او قريباً منهُ وتفاوضوا في الاخبار عن جيوش المسلمين والنصارى او اخذوا في احصاء اموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الاغنياء والموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الاغراب فاذا استكشفت اصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت احوال اهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونهُ وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطاء ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة

ولا يرجعها الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسير في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزواً ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويحسبك بها صفقة خاسرة .

المرأة في الاسلام (١)

تعدد الزوجات حالة لازمة لبعض درجات التشوء العمراني لا مناص منها فكثرة الحروب بين القبائل وما ينشأ عنها من نقص الرجال مع حفظ عدد النساء واستبداد الامراء امور كلها توجب هذه العادة التي نستقبحها في عصرنا هذا ونراها ضرراً عظيماً .

ولقد عرف تعدد الزوجات في القديم بين الامم الشرقية كافة واستعمال الملوك لها رهم مظنة الاتصال بالله تعالى حللها للرعية وحببها اليهم وقد انتشرت في الهندوس وهم مجوس الهند منذ ابتداء امرهم والظاهر انهم كانوا كالماديين والاشوريين والبابليين والفرس لا حدّ لهم في ما يمكنهم التزوج به من النساء وان براهمة « الصف الاول » الى يومنا هذا يباح لهم من تعدد الزوجات ما تشتهي نفوسهم

وانتشرت هذه العادة ايضاً في بني اسرائيل قبل ظهور موسى وهو رغبي بها من غير ان يضع حداً لها الاّ ان التلمود في الاعصر المتأخرة علق العدد على كفاءة الرجل ومع ان الربانيين وهم احبار اليهود أفتوا للناس بان لا يتزوجوا باكثر من اربع فقد خالفهم القراءون في ذلك ولم يجوزوا وضع حد ما .

ودين الفرس الاقدمين يكافيء الرجل على تعدد زوجاته وقد انحطت هذه العادة عند الفينيقيين والسوريين الاقدمين الى الخروج عن الاطوار البشريه . وبلغت عند التراسيين والليديين والبلاسجيين الذين نزلوا القارة الاوروبية وغربي آسيا مالم تبلغه عند غيرهم وكانت المرأة عند الاثينيين وهم ارقى الشعوب الخالية متاعاً يباع ويشرى ويورث ويوصى به بعد الموت . وابيح لهم من التعدد ما شاؤا .

اما رومية فان الاحوال الخاصة التي بنيت عليها ادارتها منعت تعدد الزوجات غالباً . ومهما يكن من صحة ما ورد من اغتصاب الصابنيات فان وجود هذا الخبر في الاساطير الرومانية يدل على الاسباب التي دخلت في سن الشرائع الرومانية الخاصة بالزواج . اما في الاقطار المجاورة وخصوصاً عند الاترسكانيين فان تعدد الزوجات كان من العادات الممتاز اصحابها . ومجاورة الرومانيين لغيرهم من الامم سكان ايطاليا احقاباً متوالية وحروبهم

(١) معربة عن الانكليزية من كتاب « روح الاسلام » للامير علي العالم الهندي الشهير